الدرس الأول :

إذا جاء رمضان فُتِّحت أبواب الجنة

روى الشيخان : البخاري ومسلم ، عن أبي هريرة ﷺ ، أن رسول الله ﷺ قال : « **إذا جاء رمضان : فُتِّحت أبواب الجنة ، وغُلِّقت أبواب النار ، وصُفِّدت الشياطين** »[1].

وفي رواية للإمام مسلم : « **فُتِّحت أبواب الرحمة ، وغُلِّقت أبواب جهنم ، وسُلْسلت الشياطين** »[2].

وفي رواية لابن خزيمة في صحيحه : « **إذا كان أول ليلة من شهر رمضان : صُفِّدت الشياطين ومَرَدَةُ الجن ، وغُلِّقت أبواب النار ، فلم يُفتح منها باب ، وفُتِّحت أبواب الجنة فلم يُغلق منها باب ، وينادي منادي : يا باغي الخير أقبل ، ويا باغي الشر أقصر . ولله عتقاء من النار ، وذلك كل ليلة** »[3].

رمضان متجر أهل الإيمان :

هذا هو شهر رمضان ، شهر تكثُر فيه أسباب الخير ، وتقلُّ فيه أسباب الشر ، تُفتح أبواب الرحمة ، وأبواب الجنة ، أيْ : تكثُر الدواعي إلى الخيرات وإلى الطاعات ، وتقلُّ الدواعي إلى الشر ، وهو ما كنَّى عنه بتضييق أبواب النار ، وتقييد الشياطين ، وتصفيدها بالسلاسل والأغلال .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (١٨٩٩) ، ومسلم (١٠٧٩) واللفظ له ، كلاهما في الصيام ، كما رواه أحمد (٨٦٨٤) ، والنسائي في الصيام (٢٠٩٧) ، عن أبي هريرة .

(٢) رواه مسلم في الصيام (١٠٧٩) ، وأحمد (٧٧٨٠) ، والنسائي في الصيام (٢١٠٠) ، عن أبي هريرة .

(٣) رواه الترمذي (٦٨٢) ، وابن ماجه (١٦٤٢) ، وابن خزيمة (١٨٨٢) ، وابن حبان (٣٤٣٥) ، وقال الأرناؤوط : إسناده قوي ، والحاكم (٤٢١/١) ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذه السياقة ، والبيهقي في الكبرى (٣٠٣/٤) ، كلهم في الصوم ، عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٣٣١) .

إنَّ الله سبحانه وتعالى ، يتيح لعباده ما بين حين وآخر ، فرصًا كثيرة ، يتقربون فيها إليه ، ويقتربون فيها من ساحته ، إنه سبحانه وتعالى يناديهم من بعيد ، ويتلقاهم من قريب . إذا اقتربوا منه شبرًا ، اقترب منهم ذراعًا ، وإذا اقتربوا إليه ذراعًا اقترب إليهم باعًا ، وإذا أتوه يمشون أتاهم هرولة[1].

إنه سبحانه وتعالى يناديهم في كل حين ، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا ، أن يقفوا على بابه ، وأن يتمسَّحوا بأعتابه ، وأن يَقرَعوا باب التوبة ، مستغفرين قائلين ما قال أبوهم آدم ، وأمهم حواء : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (الأعراف:٢٣).

---

(١) إشارة إلى الحديث القدسي : « . . . وإن تقرب إليَّ شبرًا تقرَّبت إليه ذراعًا ، وإن تقرَّب إليَّ ذراعًا تقربت إليه باعًا ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» . متفق عليه : رواه البخاري في التوحيد (٧٤٠٥) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٧٥) ، كما رواه أحمد (٧٤٢٢) ، والترمذي في الدعوات (٣٦٠٦) ، وابن ماجه في الأدب (٣٨٢٢) ، عن أبي هريرة .
والباع : قَدْر اليدين مفتوحتين والصدر بينهما .
والهرولة : بين المشي والعَدْو ـ أي : الركض ـ وهو كناية عن سرعة إجابة الله تعالى ، وقبول توبة العبد . كما قال ابن الأثير في «النهاية» ٥ : ٢٦١ وفي هذا القول الكريم «وإن تقرَّب مني شبرًا : تقرَّبت إليه ذراعًا ، وإن تقرَّب إليَّ ذراعًا : تقربت إليه باعًا» عظيم فضل الله ولطفه وكرمه على عباده المقبلين عليه بالتوبة . ونقل الإمام الترمذي رحمه الله تفسيره ـ عقب روايته له ـ عن الأعمش أحد رواة هذا الحديث ، وهو إمام مشهور بالقراءات ورواية الحديث ، توفي سنة بضع وأربعين ومئة ، قال : «ويُروى عن الأعمش في تفسير هذا الحديث . «من تقرب مني شبرًا تقربت منه ذراعًا» يعني بالمغفرة والرحمة ، وهكذا فسَّر بعضُ أهل العلم الحديث ، قالوا : إنما معناه : يقول : إذا تقرَّب إليَّ العبد بطاعتي وبما أمرت تسارعُ إليه مغفرتي ورحمتي . ونحو هذا التفسير قول قتادة عقب روايته للحديث : « فالله أسرع بالمغفرة» كما في «المسند» ٣ : ١٣٨ ، وتوفي قتادة قبل الأعمش بنحو ثلاثين سنة .
وقال النووي في «شرح مسلم» ١٧ : ٣ «وهذا الحديث من أحاديث الصفات ، ويستحيل إرادة ظاهره ، ومعناه : من تقرَّب إليَّ بطاعتي تقربت إليه برحمتي والتوفيق والإعانة ، وإن زاد : زدت ، فإن أتاني بمشي وأسرع في طاعتي : أتيته هرولةً ، أي : صببت عليه الرحمة وسبقته بها ، ولم أحوجه إلى المشي الكثير في الوصول إلى المقصود . والمراد : أن جزاءه يكون تضعيفه على حسب تقرُّبه».

تنوُّع الطاعات وتعدُّد الفرص :

في كل يوم فرص للقُربى من الله عزَّ وجل ، كما في الصلوات الخمس ، التي هي معراج المؤمن ، معراج يومي إلى الله سبحانه وتعالى ، حيث يقف المسلم بين يدي ربه في اليوم مرات خمسًا ، يقف بين يدي الله يُناجيه ، فيُناجي قريبًا غير بعيد ، ويسأله ، فيسأل كريمًا غير بخيل ، ويستعين به ، فيستعين بقوي غير ضعيف ، وعزيز غير ذليل : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة:٥)، فرص يومية للتقرُّب والتطهُّر .

وفرص أسبوعية تتمثَّل في يوم الجمعة ، وصلاة الجمعة .

الفرصة السنوية في مدرسة رمضان :

ثم فرصة سنوية تتمثَّل في هذا الشهر الكريم ، في هذه المدرسة التي يفتحها الإسلام كل سنة للمسلم ، يتعلَّم فيها ويتدرَّب ، ويتربَّى على حسن العبودية لله ، على القيام بذكر الله تعالى وشكره ، وحسن عبادته ، يتعلَّم فيها الصبر ، ويتعلَّم فيها قوة الإرادة ، يتعلَّم فيها كيف يعامل ربه ، وكيف يثقِّف نفسه ، وكيف يستعلي على تراب الأرض ، حينما يتطلَّع إلى روحانية السماء .

إن رمضان تُفتح فيه أبواب الجنة ، وأبواب الخير ، وتُغلق فيه أبواب جهنم ، وأبواب الشر ، وتُصفَّد الشياطين ، وينادي المنادي كل يوم : يا باغي الخير أقبل وأبشر ، يا طالب الخير ، أمامك الفرص متاحة ، وأمامك الأبواب مُفتَّحة . أمامك الشهر مَن تقرَّب فيه بنافلة كان كمن أدَّى فريضة في غيره ، ومَن تقرَّب فيه بفريضة كان كمَن أدَّى سبعين فريضة فيما سواه[1].

شهر تزداد فيه الحسنات ، وتُضاعف فيه أجور الطاعات ، شهر مَن استطاع فيه أن يكسب فليكسب ، ومَن استطاع فيه أن يربح فليربح ، والربح هنا ليس درهمًا

---

(١) إشارة إلى حديث سلمان الذي أشرنا في المقدمة إلى ضعفه : « ... من تقرب فيه بخصلة من الخير كان كمن أدّى فريضة فيما سواه ، ومن أدّى فيه فريضة كان كمن أدّى سبعين فريضة فيما سواه . . . » ، وسيأتي تخريجه ص ٢٥ .

ولا دينارًا : إنه مغفرة وجنَّة ، مغفرة من الله للذنوب ، وتكفير للخطايا ، « مَن قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدَّم من ذنبه »[1] ، « مَن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدَّم من ذنبه ، ومن صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدَّم من ذنبه »[2].

معنى : « إيمانًا واحتسابًا »

ومعنى الإيمان والاحتساب : أنه لا يصوم لمجرَّد اتِّباع العادة ، أو لمجرَّد الخجل من الناس ، ولا يقوم لمجرد أنه يفعل كما يفعل غيره ، وإنما صيامه وقيامه إيمان وتصديق بوعد الله ، وطلب للمثوبة والأجر من الله وحده ، هذا معنى الإيمان والاحتساب . . . مَن صام إيمانًا واحتسابًا خرج بمغفرة لذنوبه ، خرج من هذا الشهر كيوم ولدته أمه ، وُلد ميلادًا جديدًا ، متطهِّرًا متحرِّرًا من الآثام والخطايا . . .

يا باغي الخير أقبل :

فرصة يتيحها الإسلام للمسلم كل عام في هذا الشهر الكريم ، يناديه المنادي من قِبَل السماء : يا باغي الخير ، يا طالب الخير ، أقبل وأبشر ، ويا طالب الشر أقصر ، كفى ما فات . . . كفاك أحد عشر شهرًا غفلة عن الله ، كفاك غرقًا في لُجَّة الحياة . . . انتشل نفسك من هُوَّة الحياة الدنيا ، وارتفع إلى الحياة العليا ، ضع يدك في يد الله ، اعقد بينك وبين الله صُلحا ، أكثِر من الذكر والشكر والتسبيح والتهليل والتكبير . . .

يوصي النبي ﷺ أمته في هذا الشهر ، فيقول فيما يُرْوى عنه : « استكثروا فيه من أربع خصال : خَصلتان ترضون بهما ربكم ، وخَصلتان لا غَنَاء بكم عنهما ، أما الخلصتان اللتان ترضون بهما ربكم : فشهادة أن لا إله إلا الله ، وتستغفرونه . (التهليل والاستغفار) ، وأما الخلصتان اللتان لا غنى بكم عنهما : فتسألون الله الجنة ، وتتعوَّذون به من النار »[3].

---

(١) سيأتي تخريجه وشرحه في الدرس السادس والعشرين صـ ٢٠٦ .

(٢) سيأتي تخريجه وشرحه في الدرس السادس والعشرين صـ ٢٠٦ .

(٣) سيأتي تخريجه وشرحه في الدرس السادس الثالث صـ٢٥ .

هذه هي الفرص التي يتيحها الإسلام للمسلم في شهر رمضان ، يستكثر من الذكر والشكر وحُسْن العبادة ، بحيث يزيد من رصيده عند ربه ، ويعوِّض ما فاته من غفلات العام ، غفلات أحد عشر شهرًا ، في شهر يضاعف الله فيه المثوبة ، ويضاعف فيه الأجر .

متجر أهل الإيمان :

ولهذا كان السلف يسمون هذا الشهر : (متجر أهل الإيمان) ، موسم المتقين ، موسم يترقَّبونه كما يترقَّب تجار الدنيا مواسم الربح ، ومواسم العمل ، ليزيد فيها النشاطُ ، ويُضاعف فيها الجهدُ ، عسى أن يكسبوا بعض الدراهم أو الدنانير أو الريالات أو الدولارات أو الجنيهات . . . بعض ما يتطَّلع إليه الناس ويسيل إليه لعابهم في هذه الحياة ، وهو ربح مهما ظنَّ الناس به ربح لا يبقى ، سيزول عن قريب وإن بقي أعوامًا ، فإن الإنسان لا يبقى له ، الإنسان نفسه فانٍ وذاهب ، وكل ما في هذه الحياة فان وذاهب . . . ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ (النساء:٧٧).

هذه هي فرصتكم أيها المسلمون ، فيا بُغاة الخير ، يا طلاَّب الثواب ، يا عشَّاق الجنة ، يا مَنْ يريدون سلعة الله الغالية . . . ها هي السوق قد فُتحت ، ها هي الفرصة قد أُتيحت ، ها هي الأبواب قد فُتحت أمامكم فلِجُوها ، ادخلوها ، واعملوا مع الله ، ولن يَتركم الله أعمالكم .

نسأل الله عزَّ وجل ، أن يفتح قلوبنا على طاعته ، وأن يُقوِّي عزائمنا على عمل الخير ، وخير العمل ، وأن يجعل حظنا من هذا الشهر الكريم ، القبول والمغفرة والرحمة ، والعتق من النار ، إنه سميع قريب .

* * *